ودام حكم العثمانيين لبودابست ١٦٥ سنة؛ حيث انتهى عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٥م، باستيلاء الدوق لورتنجن النمسوي عليها بعد حصار طويل، استشهد فيه عبدي باشا، آخر محافظ تركي لبودابست، كما قتل من حاميتها نحو ٤٠٠٠ رجل.

سليمان القانوني:

العاشر من سلاطين الدولة العثمانية ويعرف بسليمان الأول، وتتحدث عنه بعض المصادر الأوربية على أنه (سليمان الفاخر)؛ لأنه كان يمثل العصر الذهبي للأتراك العثمانيين، ولُقِّبَ بالقانوني بسبب التشريعات الإصلاحية التي سنّها وجعلها دستوراً للحكم.

ولد عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، وهو الابن الوحيد للسلطان سليم الأول، خلف أباه بعد وفاته عام ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م، ودام حكمه نحو نصف قرن من الزمان، وكان من معاصريه فرنسوا الأول في فرنسا، والإمبراطور شارل الخامس (شرلكان) في ألمانيا وإسبانيا، وهنري الثامن في إنجلترا، وإيفان الثالث في روسيا، وفي إيران الشاه إسماعيل ثم طهماسب، وفي الهند الإمبراطور بابر ثم همايون أكبر.

ورث سليمان إمبراطورية امتدت من حدود النمسا غرباً حتى مشارف إيران شرقاً، تكونت نتيجة لسلسلة من الانتصارات الحربية، وقد ضمت شعوباً وقوميات مختلفة العقائد واللغات، فكان ذلك من الأسباب التي جعلت الحرب وسيلة لا بديل لها من أجل الاحتفاظ بهذا الميراث. وقد تعددت جهات القتال برّاً

وبحراً كما تعددت الدول التي وقفت موقف العداء للسلطان، وزاد من هذا الخطر الأحلاف والاتفاقات التي عقدت للقضاء على حركة التوسع الإقليمي في أوربا أو آسيا على السواء، وتيسيراً لإبراز معالم التاريخ العسكري المتشابك لعصر سليمان القانوني يمكن تقسيمه إلى أربع جبهات رئيسة:

الحروب الأوربية، والحرب الآسيوية، الحرب البحرية في البحر المتوسط، والصراع في المحيط الهندي والبحر الأحمر.

عقدت خلال حكم سليمان القانوني ستة أحلاف أوربية للقضاء على الدولة برّا وبحراً، اشتركت فيها المجر والنمسا والبندقية وبولندا وألمانيا وإيطاليا والبابا وإسبانيا ومولدافيا، وفرسان القديس يوحنا في رودس، ثم في مالطة فضلاً عن البرتغال في البحار الشرقية.

أما فرنسا فقد كانت حليفةً طبيعية للدول بسبب الصراع الدموي بين فرنسوا الأول وشارل الخامس (شرلكان الإسباني)، ولم يكن لإنجلترا أو روسيا أو السويد عظيم شأن في هذه التكتلات.

فكانت المجر الميدان الرئيس للحروب الأوربية العثمانية، وبدأت الحروب بعد شهور من تولي السلطان عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م، بسبب تدخل ملك المجر لويز الثاني في شؤون البوسنة، وقتله سفير السلطان الذي بعثه لتسوية ما بين الدولتين، فخرج السلطان من أدرنة، ومعه عدد من مشاهير قواده. وفي ٢٦من رمضان ٩٢٧هـ/ ٧ يناير ١٥٢١م استولى على بلجراد، وضُمَّتْ إلى ولاية البوسنة، وكانت بلجراد أقوى حصون المجر، كما استولى على عدد من القلاع الأخرى.

وفي عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م تجدّد القتال بين المجر والدولة أثناء انصراف السلطان إلى فتح جزيرة رودس، فخرج السلطان إلى المجر يتقدمه جيش بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وعلى سهل موهاكس (موهاتس)، جرت المعركة الفاصلة في ٩٣٣هـ/ ٣٠/ ٨/ ١٥٢٦م، التي أفقدت المجر استقلالها ومهدت لضمها إلى أملاك الدولة العثمانية، وفيها قتل الملك لويز.

وبدأت الحرب مع النمسا في عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، بمحاولة فرديناند ملك النمسا الذي ضمَّ المجر إليه بدعوى الوراثة، ومعادياً زابولي خليفة لويز الثاني الذي استنجد بالدولة، فخرج السلطان مرّةً أخرى إلى المجر، وحاصر العاصمة المجرية بودا، واستولى عليها بعد استسلام حاميتها النمسوية، ومنها سار إلى حصار فيينا في سبتمبر ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م، أي في نفس العام، وامتدت إلى العام التالي ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م، وفي خلال ذلك بلغ السلطان مدينة جراتز النمسوية. وفي عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م خرج السلطان إلى المجر فاستعاد مدينة بودا التي كان الملك فرديناند قد استولى عليها، وضُمَّت المجر منذ ذلك التاريخ نهائيا إلى الدولة.

وفي عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م خرج للمرّة العاشرة إلى المجر، وفك الحصار عن مدينة بست، وتجددت الحرب عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م، فأغار صوقللي محمد باشا على النمسا، ونجح في هزيمة النمسا وحلفائها، وفي خلال ذلك كان الصراع في البحر المتوسط بين الأساطيل الأوربية المتحالفة ـ والدولة على أشده.

كانت الأحلاف الأوربية ضد الدولة أكثر نشاطاً على مياه البحر المتوسط، وبرز بين الجانبين عدد من مشاهير أمراء البحر، ففي عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م، فتح السلطان وبرفقته بيلان مصطفى باشا جزيرة رودس، فهجرها فرسان القديس يوحنا إلى مالطة. وفي عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م عُقِدَ حلفُ ضم البابا وإسبانيا وإيطاليا والبندقية ومالطة، وأمام جزيرة كورفو جرت أولى المعارك البحرية، وانتهت بتخريب أسطول الحلفاء، وهرب قائده بما تبقى من سفن، وردّ الحلفاء على الهزيمة بحملة بحرية عام ١٥٤١م، على الجزائر التي كانت تابعة للسلطان، لكن الحملة منيت بالهزيمة.

وفي عام ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م، وقعت معركة جربة على الساحل التونسي، وانتهت بكارثة للحلفاء، وفرّ القائد الأوربي تاركاً ما بقي من سفن الأسطول، وعليها كثيرٌ من أمرائهم وقوادهم في يد بيالة باشا، القائد العثماني.

وفي عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م، كان حصار جزيرة مالطة، وفيها توفي القائد التركي بسبب جراح أصابته، ورفع الحصار عن الجزيرة، ثم كان الاستيلاء على جزيرة سافر ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، آخر العمليات البحرية المهمة إبّان حكم السلطان.

وكان من نتائج استنجاد ملك فرنسا فرنسوا الأول بالسلطان عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٢م، في حربه مع شرلكان أن أرسل السلطان أسطولاً من ١٠٠ سفينة بقيادة خير الدين بربروسة لمساعدة العمارة الفرنسية، فاستولى أمير البحر العثماني على مدينة نيس، كما أغار على سواحل إسبانيا، وكانت هذه آخر المعارك التي اشترك فيها خير الدين قبل وفاته عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م.

وتجددت الحروب مع إيران منذ العام الأول لتولي السلطان سليمان القانوني، واستمرت الحروب بتولية طهماسب، الذي راح يؤلب أمراء الأناضول وولاة الأقاليم الشرقية على الدولة. وفي عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، حاصر الشاه مدينة بغداد لكنه لم يلبث أن أخلاها في العام التالي بعد أن قدم السلطان بنفسه لقيادة الجيش، ثم استعاد الحلَّة والنجف وكركوك، ومدّ فتوحاته إلى لورستان. وانتهت هذه المعارك بصلح مؤقت؛ فقد تجددت الحرب عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م، باستيلاء الشاه على أرضروم، فخرج السلطان إلى الشرق واستولى في طريقه على وان، وتبريز ومراغة من أملاك الشاه. وطلب الشاهُ الصلح فعقدت أول معاهدة بين الدولتين عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م، تضمنت عدا البنود السياسية إباحة الحج للإيرانيين الشيعة، ومزاولة شعائرهم دون معارضة.

جرت البرتغال على تخريب الاقتصاد العثماني بتحويل تجارة الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وأقامت البرتغال لها مواقع حصينة على سواحل الخليج والهند وإفريقية الشرقية حتى مدخل البحر الأحمر، فدفع ذلك السلطان سليمان للاهتمام بالأسطول في البحر الأحمر والمحيط الهندي.

واستولى الأسطول على عدن وانتهى إلى ساحل الهند، وحاصر ديو دون نتيجة، وأثناء عودته ضم اليمن إلى أملاك الدولة.

وفي عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م، استولى العثمانيون على ميناء مسقط وجزيرتي هرمز ودراخت من جزر الخليج، والتحم مع الأسطول البرتغالي في حملة تالية بالقرب من جزيرة هرمز وأغرق أكثر سُفُنه.

وتوفي السلطان سليمان القانوني بمرض النقرس في ٢٠من صفر ٩٧٤هـ/ الأول من سبتمبر ١٥٦٦، وخلفه ابنه الوحيد سليم الثاني.